الفصل الثالث
الحياة الثقافية

يلاحظ دارسو الآداب ، والمتتبعون لتاريخ العلوم أنَّ الحركة الثقافية لا تسير فى خط مواز دائما للحركة السياسيّة ؛ فقد يكون الرقُّى السياسى مصدر الرقُىّ الأدبى ، وقد يكون الانحطاط السياسى مصدر الرقُىّ الأدبى أيضا ، والقرن الرابع الهجرى دليل واضح على أنَّ الصلة بين الأدب والسياسة قد تكون صلة عكسيّة

فى كثير من الأحيان [١] ؛ فالدولة العبّاسيّة - فى عهودها المتأخّرة - ضعفت سلطتها المركزيّة ، وتمزّقت وحدتها السياسيّة ، وأصبح تاريخها هو تاريخ الإمارات التى انشقّت عنها ، وإذا كانت هذه الدويلات المنشقّة قد أتت على بنيان دولة العرب من القواعد فقد ظلّت الحركة الثقافيّة - فى رُقِيّها ونهوضها - امتدادًا موصولا بالحركة الثقافية الرائعة فى العصر العبّاسى الأول ؛ وذلك بفضل تنافس الملوك والأمراء فى نشر العلم ، ورعاية العلماء ، ومشاركة بعضهم فى فنون من القول والفكر .

وفى عهد المماليك استمرّت الحركة الثقافيّة قويّة ونشطة ، بالرّغم مما أصابها من تقليد فى الفكر ، وتصنُّع فى الأسلوب ؛ فالأدب مرآة حياة المجتمع ، والمعبر عن قضاياه وشواغله ، ولا بُدَّ من أنْ يعتريه من التغيّر بقدر ما تصدّع من بنيان الأمّة ، فى وقت غابت فيه السيادة العربية ، والقيادة الرشيدة ، وصار الأمر فى أيد أعجميّة تعمل - غالبا - لصالحها من دون الناس .

والاحتياط محتوم فى ترديد ما اعتاد أكثر مؤرخى الأدب والباحثين من وصف العصور التى تلت نكبة بغداد ، على أيدى المغول ، فى سنة ٦٥٦ هـ بأنَّها عصور الضعف الثقافى ، والانحطاط الأدبى ، والانهيار الفكرى ؛ فإنَّ أمراء المماليك بذلوا جهودا طيّبة فى سبيل رقى العلوم ، والنهوض بها ، ولم يخل عصر واحد منهم من تشييد مدرسة ، أو بناء جامع ، فيه مدرسة وخزانة كتب ، أو تأسيس كُتّاب للأطفال ، أو دار لتحفيظ الأيتام القرآن الكريم ، أو دار يدرس فيها طلاب العلم الحديث الشريف ، وأوقفوا قرى وضياعا ينفق من وارداتها على مراكز الثقافة ، ومن أمثلة ذلك :

---

(١) من تاريخ الأدب العربى ، لطه حسين ١ / ٣٩ .

البِيمَارِسْتَان العظيم [١] الذى بناه الملك المنصور [٢] ، وأعدَّ فيه المرافق ، والأدوية ، ورتّب فيه الأطباء للعلاج ، والعلماء للتدريس ، وأوقف عليه أوقافا عظيمة [٣] .

أمر حسام الدين لاجين بتجديد جامع أحمد بن طولون ، وأوقف عليه عدّة قرى ، وقرَّر فيه دروس الفقه ، والحديث ، والطب ، وغير ذلك [٤] .

كان فى جامع عمرو بن العاص بضع وأربعون حلقة لإقراء العلم ، لا تكاد تبرح منه ، ولم يكن الجامع الأزهر - وهو أشهر معاهد العلم الإسلاميّة على الإطلاق - مقصورا على أهل مصر وحدها ، بل كان المسلمون يقصدونه ، من كافّة أنحاء العالم الإسلامى ، حتّى من بلاد المغرب ، والهند ، وأواسط إفريقية [٥] .

وأمَّا مدارس القاهرة فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها [٦] ، وفى مدن مصر والشام ، وقراهما بلغت نحوًا من سبعين مدرسة ومعهدا ، ومثل هذا العدد فى الأصقاع ، والولايات التابعة للمماليك [٧] الذين استحدثوا مراكز جديدة للتعليم ، لم تكن معروفة من قبل ، فإلى جانب المساجد ، والمدارس ، والزوايا ، والكتاتيب ، والبيمارستانات اتّخذ المماليك من المقابر مراكز لطلب العلم ، سمَّاها التُّجَيْبِى [٨]

---

(١) البيمارستان ، أو المارستان : دار المرضى . انظر : ترتيب القاموس المحيط ٤ / ٢٢٩ ، والألفاظ الفارسية المعربة ٣٣ ، واللفيف المجموع ٥٢ ، وانظر Dozy : Supp. dict. Arab. V. II P. 572.

(٢) سيف الدين ، أبو المعالى ، قلاوون ، الألفى الصالحى (٦٢٠ - ٦٨٩ هـ) مؤسس الدولة القلاوونية ، ومن أكثر ملوكها آثارا وفتوحات . انظر : الوافى بالوفيات ٢٤ / ٢٦٦ ، والبداية والنهاية ١٣ / ٣١٧ ، والأعلام ٥ / ٢٠٣ .

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب ، للتجيبى ٤ ، ورحلة ابن بطوطة ٣٧ .

(٤) مستفاد الرحلة ٦ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ١٠٧ .

(٥) عصر الانحدار ١٧٤ .

(٦) رحلة ابن بطوطة ٣٧ .

(٧) عصر الانحدار ١٧٤ .

(٨) القاسم بن يوسف بن محمد ، علم الدين ، التُّجَيْبِى ، السَّبْتِى (نحو ٦٧٠ - نحو ٧٣٠ هـ) محدّث ، عالم ، رحّالة ، انتقى له الذهبى مائة حديث عن مائة شيخ . انظر : الوافى بالوفيات ٢٤/١٧٣ ، والدرر الكامنة ٣ / ٢٤٠ ، وفهرس الفهارس والأثبات ، للكتانى ١ / ٢٦٤ .

«الروضات» ، ووصف منها روضة الملك الصالح [١] ، وروضة الملك المنصور [٢] .

يضاف إلى كل تلك المراكز الندوات العلميّة ، والمجالس الأدبيّة التى دأب العلماء على عقدها فى بيوتهم ، وبساتينهم ، فتجرى فيها المناظرات ، والمحاورات ، وتلقى فيها الدروس على الدارسين ، ويؤدى فيها الطلبة امتحانات الكفاءة [٣] .

يحدّثنا ابن كثير [٤] عن واحدة من تلك الندوات ، قال [٥] : « دُعِيتُ إلى بستان الشيخ العَلاَّمَة كمال الدين ابن الشريشى [٦] شيخ الشافعيّة ، وحضر جماعة من الأعيان ، منهم : الشيخ العلاّمة شمس الدين ابن الموصلى الشافعى [٧] ، والشيخ الإمام العلاَّمة صلاح الدين الصفدى وكيل بيت المال ، والشيخ الإمام العلاَّمة شمس الدين الموصلى الشافعى [٨] ، والشيخ الإمام العلاّمة مجد الدين محمد بن يعقوب

---

(١) أبو الفتوح ، أيوب بن محمد ، نجم الدين (٦٠٣ - ٦٤٧ هـ من أعظم ملوك الأيوبيين ، وأشجعهم ، مات فى المنصورة وهو يقاتل الصليبيين ، وله آثار كثيرة . انظر : مرآة الزمان ٨ / ٢ / ٧٧٥ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٥٥ ، وشفاء القلوب ، للحنبلى ٣٢٩ ، والأعلام ٢ / ٣٨ .

(٢) انظر : مستفاد الرحلة والاغتراب ٥ .

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب ٢٠ .

(٤) أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر ، عماد الدين (٧٠١ - ٧٧٤ هـ) حافظ مفسّر ، فقيه ، مؤرخ ، أشهر كتبه البداية والنهاية . انظر : الأعلام ١ / ٣٢٠ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ٢٨٣ .

(٥) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٥ .

(٦) أبو العبّاس ، أحمد بن محمد بن أحمد ، كمال الدين ، البكرى ، الشافعى ، المعروف بابن الشريشى (٦٥٣ - ٧١٨ هـ) وكيل بيت المال بدمشق ، وشيخ دار الحديث الأشرفيّة ، وناب فى القضاء ، شاعر ، أديب ، من بيت علم وكرم . انظر : أعيان العصر ١ / ٣١٧ ، والوافى بالوفيات ٧ / ٣٣٧ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٩١ ، والدرر الكامنة ١ / ٢٤٦ ، والمنهل الصافى ٢ / ٧١ ، والنجوم الزاهرة ٩ / ٢٤٣ ، والدارس ١ / ٢٥ ، وشذرات الذهب ٦ / ٤٧ .

(٧) محمد بن محمد بن عبد الكريم ، شمس الدين ، ابن الموصلى ، البعلى (٦٩٩ - ٧٧٤ هـ) فقيه ، أديب ، من كتبه بهجة المجالس ورونق المجالس انظر : الأعلام ٧ / ٣٩ ، ومعجم المؤلفين ١١ / ٢٣٥ .

(٨) محمد بن عبد الله بن على بن المعافى ، شمس الدين الموصلى ، ثم الدمشقى (ت ٧٧١ هـ) ولى إمامة العادلية ، بدمشق ، وكان له حانوت يتّجر فيه ، وأضِرَّ بأخرة ، ويبدو أنّ حاجى خليفة أخطأ =

الشيرازى ، من ذريّة الشيخ أبى إسحاق الفيروزبادى [١] ، من أئمة اللغويين ، والخطيب الإمام العلاَّمة صدر الدين ابن العزّ الحنفى [٢] ، أحد البلغاء الفضلاء ، والشيخ الإمام العلاَّمة نور الدين على بن الصارم [٣] أحد القرّاء المحدّثين البلغاء ، وأحضروا نيِّفًا وأربعين مجلّدًا من كتاب المنتهى [٤] فى اللغة للتميمى البرمكى [٥] ، وَقْف الناصريّة ، وحضر ولد الشيخ كمال الدين ابن الشريشى ، وهو العلاَّمة بدر الدين محمد [٦] ، واجتمعنا كلُّنا عليه ، وأخذ كلٌّ منَّا مجلَّدًا ، بيده ، من تلك المجلَّدات ، ثم أَخَذْنَا نسأله عن بيوت الشِّعْر المستشهد عليها بها ، فينثر كُلاًّ منها ، ويتكلَّم عليه بكلام مبين مفيد ؛ فجزم الحاضرون والسامعون أنَّه يحفظ جميع شواهد اللغة ، ولا يشذُّ عنه منها إلاَّ القليل الشاذ ، وهذا من أعجب العجائب » .

= فى نسبة كتاب الكامل فى الفقه إليه وهو لجدّه المعافى ، كما فى الدرر ، وأخطأ - أيضا - فى تاريخ وفاته ، وهو خطأ كثير جدّا فى كشف الظنون . راجع : الدرر الكامنة ٣ / ٤٧٨ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ٢٥٠ ، نقلا عن كشف الظنون ، وهديّة العارفين .

(١) أبو طاهر ، محمد بن يعقوب ، مجد الدين ، الشيرازى (٧٢٩ - ٨١٧ هـ) صاحب القاموس المحيط ومن أئمة اللغة ، والأدب ، والتفسير .

انظر : الأعلام ٧ / ١٤٦ ، ومعجم المؤلفين ١٢ / ١١٨ .

(٢) على بن على بن محمد بن أبى العزّ الحنفى (٧٣١ - ٧٩٢ هـ) قاضى القضاة بدمشق ، ومصر ، من مؤلفاته « التنبيه على مشكلات الهداية » فى الفقه والنور اللامع فيما يعمل به فى الجامع » . انظر : الأعلام ٤ / ٣١٣ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ١٥٦ ، ولقبه فيه « علاء الدين » .

(٣) لم أهتد إلى معرفته .

(٤) هو معجم منقول من صحاح الجوهرى ، بترتيب مختلف ، قيل إنّه مرتب بحسب أوائل الكلمات ، وقيل مرتب بحسب الأواخر ، وما قبل الأخير ، وما قبله وهو معنى قول الذين كتبوا عنه : « أغرب فى ترتيبه » منه جزء فى مكتبة إبراهيم حمدى الخربوطلى أمين مكتبة عارف حكمة الله ، بالمدينة المنورة ، ومنه بعض وريقات مصوّرة فى معهد المخطوطات العربية . انظر : معجم المعاجم ٢٤٥ .

(٥) أبو المعالى ، محمد بن تميم ، البرمكى ، اللغوى (ت بعد ٣٩٧ هـ) من أقران الجوهرى ، وصاحب معجم المنتهى فى اللغة .

انظر : معجم المؤلفين ٩ / ١٣٨ .

(٦) أبو بكر ، محمد بن أحمد بن محمد ، بدر الدين ، ابن الشريشى (٦٩٤ - ٧٦٩هـ) قاضى حمص ، ودرّس فى البادرائية ، والشاميّة البرانية ، وناب فى الحكم ، له شرح المنهاج ، وزائد الحاوى الصغير ، وله خطب ، ونظم ، ولقبه فى مصادر ترجمته جمال الدين .

انظر : الأعلام ٥ / ٣٢٨ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ٣١٦ .

وكانت المكتبات العامة ، وخزائن الكتب تَمُدُّ مراكز الثقافة بالمراجع ، وبخاصّة بعد تقدُّم صناعة الورق ، وظهور حرفة نسخ الكتب ، وبيعها .

ومن سلاطين المماليك من تشبّه بالخلفاء العبّاسيّين ؛ فحرص على عقد المجالس العلميّة ، والدينيّة ، بالقلعة مرّة ، أو مرّتين فى كل أسبوع ، حيث يُطْرح للبحث مختلف المسائل ، والمشكلات العلميّة ، والدينيّة ، ويتناقش فيها الحاضرون من كبار الفقهاء والعلماء ؛ ولذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك ، وأبنائهم ، والحكّام التابعين لهم أنّهم اشتغلوا بالعلم ، وتصدّى بعضهم للإقراء ، والتدريس [١] ، أذكر منهم :

الملك المؤيد [٢] صاحب التصانيف الكثيرة فى الجغرافية والتاريخ ، وله مشاركة فى غيرهما من العلوم كالتفسير ، والأُصلين والنحو ، والفقه ، والهيئة ، والمنطق ، والطب ... والملك الناصر محمد بن قلاوون وجدت له إجازة من ابن مشَرّف [٣] بخط البرزالى [٤] ، وأجاز له غيره ، وسمع من ست الوزراء [٥] ، وابن الشّحْنة [٦] ، وخرّج له بعض المحدثين جزءا فى الحديث [٧] .

---

(١) انظر : العصر المماليكى ٣٤٢ .

(٢) أبو الفداء ، إسماعيل بن على بن محمود ، الأيوبى ، عماد الدين (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ) ملك حماة ، علم ، أديب ، شاعر ، وأشهر كتبه تقويم البلدان والمختصر فى أخبار البشر . انظر : الوافى بالوفيات ٩ / ١٧٣ ، والأعلام ١ /٣١٩ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ٢٨٢ .

(٣) محمد بن أبى العزّ بن مشرف ، شهاب الدين ، ابن بيان ، الدمشقى ، البزاز الأنصارى (٦٢٠ - ٧٠٧ هـ) محدّث ، شيخ الرواية بالدار الأشرفيّة .

انظر : أعيان العصر ٤ / ٥٧٣ ، والوافى بالوفيات ٤ / ٩٤ ، والدرر الكامنة ٤ / ٤٩ ، وشذرات الذهب ٦ / ١٦ .

(٤) أبو محمد ، القاسم بن محمد ، علم الدين ، الإشبيلى ، ثم الدمشقى (٦٦٥ - ٧٣٩ هـ) حافظ ، محدّث ، مؤرخ ، له مؤلفات كثيرة ، منه ذيل على تاريخ أبى شامة ، والمعجم الكبير ، والأربعون البلدانيّة ، وثَبْت فى بضع وعشرين مجلّدا . انظر : الوافى بالوفيات ٢٤ / ١٦١ ، وأعيان العصر ٤ / ٤٩ ، والأعلام ٥ / ١٨٢ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ١٢٤ .

(٥) أم عبد الله ، ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المُنَجّى ، التنوخية (٦٢٤ - ٧٠٧ هـ) فقيهة ، محدّثة ، ومسندة العصر . انظر : الوافى بالوفيات ١٥ /١١٧ ، وأعيان العصر ٢ / ٣٩٨ ، والأعلام ٣ / ٧٨ .

(٦) أبو العباس ، أحمد بن نعمة ، شهاب الدين ، المعروف بابن الشُّحْنة (نحو ٦٢٠ - ٧٣٠ هـ) محدّث ، معمّر . انظر : أعيان العصر ١ / ٤٠٥ ، والوافى بالوفيات ٨ / ٢١٨ ، والبداية والنهاية ١٤ / ١٥٠ ، والدارس ١ / ٨٣ ، وشذرات الذهب ٦ / ٩٣ .

(٧) شذرات الذهب ٦ / ١٣٥ .

والأمير تُنْكُز [١] سمع صحيح البخارى مرارا من ابن الشِّحْنَة ، وسمع كتاب الآثار للطحاوى [٢] ، وصحيح مسلم ، وسمع من عيسى المطعِّم [٣] ، وأبى بكر بن عبد الدائم [٤] ، وحدَّث بثلاثيّات البخارى [٥] ، وقرأها عليه الْمَقْرِيزِى [٦] ، بالمدينة المنورّة .

ومن غير الأمراء والحكام ، من المماليك ، وممن ينحدرون من سلالة الأتراك نبغ عدد كبير من العلماء فى كل العلوم والآداب فكان منهم : الإمامان : الذهبى [٧] ، والعَدِيمى [٨] .

---

(١) أبو سعيد ، سيف الدين ، الأشرفى ، الناصرى (ت ٧٤١ هـ) الأمير الكبير ، نائب السلطان بدمشق . انظر : أعيان العصر ٢ / ١١٦ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٤٢٠ ، وتحفة ذوى الألباب ٢/٢٣١ ، وفوات الوفيات ١ / ٢٥١ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٥١ ، والدرر الكامنة ١ / ٥٢٠ ، والمنهل الصافى ٤ / ١٥٦ .

(٢) هو كتاب شرح معانى الآثار ، لأبى جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى (٢٣٩ - ٣٢١ هـ) جمع فيه الآثار المأثورة عن النبى ﷺ فى الأحكام التى يظنّها الملاحدة متناقضة ، ينسخ بعضها بعضا . انظر كشف الظنون ٢ / ١٧٢٨ ، والأعلام ١ / ٢٠٦

(٣) أبو محمد ، عيسى بن عبد الرحمن ، شرف الدين (٦٢٦ - ٧١٧ هـ) محدّث ، معمّر . انظر : تالى وفيات الأعيان ١٨٧ ، وأعيان العصر ٣ / ٧١٦ ، والدرر الكامنة ٣ / ٢٠٤ ، وشذرات الذهب ٦ / ٥٢ .

(٤) أبو بكر بن أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى (٦٢٦ - ٧١٨ هـ)

محدّث ، من شيوخ الحنابلة ، انقطع بموته جملة من المرويّات ، كان ذا همّة وجلادة وسعى فى سبيل الرزق ، فلقّبوه بالمحتال ، وأضرّ بأخرة .

انظر : معجم الشيوخ ٢ / ٤٠٢ ، والمعين ٢٣١ ، وذيل العبر ٩٨ ، وأعيان العصر ١ / ٧٢٦ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٢٢٢ ، ونكت الهميان ١٣٠ ، والدرر الكامنة١ / ٤٣٨ ، والنجوم الزاهرة ٩ م ٢٤٢ ، والدليل الشافى ٢ / ٨١٣ ، وشذرات الذهب ٦ / ٤٨ ، ودرة الحجال ١ / ٢٢١ .

(٥) الثلاثيات : الأحاديث التى بين مخرّجيها ورسول الله ﷺ ثلاثة أشخاص فقط ، وقد نشرت ثلاثيات البخارى ضمن مجموع « الثلاثيّات » .

(٦) عبد القادر بن محمد بن تميم ، محيى الدين ، المَقْرِيزِى (نحو ٦٧٧ - ٧٣٢ هـ) فقيه ، محدّث ، كان شيخ دار الحديث للبهاء القاسم ، ابن عساكر . انظر : أعيان العصر ٣ / ١١٩ ، والوافى بالوفيات ١٩ / ٤٢ ، والدرر الكامنة ٢ / ٣٩١ ، والسلوك ٢ / ٣ / ٣٦٥ ، وشذرات الذهب ٦ / ١٠٢ .

(٧) أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ، شمس الدين ، الذهبى (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) حافظ ، مؤرخ ، محدّث ، من المكثرين فى التأليف ، أشهر كتبه : تاريخ الإسلام ، وقد درسه وقدّم له بترجمة وافية د / بشار عوّاد معروف . انظر : الوافى بالوفيات ٢ / ٢٦٣ ، وأعيان العصر ٤ / ٢٨٨ ، والأعلام ٥ / ٣٢٦ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ٢٨٩ .

(٨) أبو سعيد ، بيبرس بن عبد الله ، علاء الدين (٦٢٠ - ٧١٣ هـ) الإمام المحدّث ، حدّث =

والشاعران : الْمُحْيَوِى [١] ، والجَاوُلِى [٢] .

والمؤرّخان : المنصورى [٣] ، وابن تَغْرِى بَرْدِى [٤] .

والخليلان : ابن كَيْكَلْدِىّ [٥] ، وابن إسحاق المالكى [٦] .

وليس من أهداف هذه الدراسة تقديم ثبت بحصر علماء المماليك وأدبائهم ، فهم كثير ، وإنّما الهدف إظهار ما لهم من عناية بالعلم والأدب ؛ لذلك لم يكن من الغريب أنْ يشجّعوا العلم وأهله ، وأنْ يبنوا المدارس المنيفة الهائلة المزخرفة بالذهب الإبريز المفروشة بالرخام المجزَّع البديع الصنعة [٧] .

= بدمشق ، وحلب ، وتفرّد بأشياء . انظر : الوافى بالوفيات ١٠ / ٣٥١ ، وأعيان العصر ٢ / ٧٥ ، والدرر الكامنة ١ / ٥٠١ .

(١) أَيْدَمُر بن عبد الله ، علم الدين التركى (ت ٦٧٤ هـ) شاعر مجيد ، حققت ديوانه لجنة التراث فى دار الكتب المصرية ، وطبعته فى سنة ١٩٣١ . انظر : الوافى بالوفيات ١٠ / ٧ ، والأعلام ٢ / ٣٤ ، ومعجم المؤلفين ٣ / ٢٨.

(٢) الطَّنْبُغَا ، علاء الدين الجاولى (ت ٧٤٤ هـ) أمير له إقطاع ، وشاعر مجيد ، ولا سيّما فى المقطعات ، مدح كثيرا من الحكام والأمراء . انظر : أعيان العصر ١ / ٦١٠ ، والوافى بالوفيات ٣٦٦/٩، وفوات الوفيات ١ / ٢٠٥ ، والدرر الكامنة ١ / ٤٠٧ ، والمنهل الصافى ٣ / ٧١ .

(٣) بيبرس ، ركن الدين المنصورى ، الخطّائى ، الدوادار (ت ٧٢٥ هـ) أمير مؤرخ ، أشهر كتبه زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، فى ٢٥ مجلدا ، وطبع له التحفة الملوكية . انظر : أعيان العصر ٢ / ٧٩ ، والوافى بالوفيات ١٠ / ٣٥٢ ، والمنهل الصافى ٣ / ٤٧٧ ، وشذرات الذهب ٦ / ٦٦ ، والأعلام ٢ / ٨٠ ، ومعجم المؤلفين ٣ / ٨٥ .

(٤) أبو المحاسن ، يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله ، جمال الدين (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) أمير ، مؤرخ ، بحّاثة ، له مؤلفات كثيرة ، أهمها النجوم الزاهرة ، والدليل الشافى ، والمنهل الصافى . انظر : الأعلام ٨ / ٢٢٢ ، ومعجم المؤلفين ١٣ / ٢٨٢ .

(٥) أبو سعيد ، خليل بن كَيْكَلْدِىّ بن عبد الله ، العلائى ، صلاح الدين الشافعى (٦٩٤ - ٧٦١ هـ) محدث ، فقيه ، أصولى ، مفسر ، نحوى ، أديب مؤرخ ، إخبارى . انظر : الوافى بالوفيات ١٣ / ٤١٣ ، وأعيان العصر ٢ / ٣٢٨ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٦٧ ، ووفيات السلامى ١ / ٣٤٩ ، والمنهل الصافى ٥ / ٢٨٢ والأعلام ٢ / ٣٢١ ، ومعجم المؤلفين ٤ / ١٢٦ .

(٦) خليل بن إسحاق بن موسى ، ضياء الدين المالكى (ت ٧٧٦ هـ) تولى الإفتاء فى مصر ، وهو صاحب « المختصر » الشهير فى الفقه المالكى . انظر : الأعلام ٢ / ٣١٥ ، ومعجم المؤلفين ١٤ / ١١٣ .

(٧) انظر : مستفاد الرحلة والاغتراب ٣ .

وجرت العادة - عند الفراغ من إنشاء مدرسة - أنْ يُحْتَفَل بافتتاحها احتفالا كبيرًا ، يحضره السلطان والأمراء والأعيان فيجتمعون حول مائدة فاخرة ، ويخلع السلطان على كل من أسهم فى بناء المدرسة من البنّائين والمهندسين والمعلمين ، ويعيِّن لها موظفيها من المدرِّسين والفقهاء والمؤذنين والقرَّاء والفرَّاشين .

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القَدْر ، يخلع السلطان على صاحبها ، ويكتب له توقيعا من ديوان الإنشاء يتضمّن : توجيهات تربويّة ، ونصائح تعليميّة ، وحَثًّا على الاشتغال بالعلم ، كما يُعَيِّن لكل مدرسة معيدًا ، أو أكثر ؛ ليساعد الطلبة على فهم درس الأستاذ ، واستيعابها ، فإذا أتَمَّ الطالب دراسته أجاز له شيخه ، وأصبح أهلا للفُتْيا والتدريس [١] .

وكانت نفقات التعليم كلّها من الأوقاف التى توقف على المدارس ، ومراكز الثقافة ، ويذكر ابن كثير الأجور الرواتب التى كان الأمير سيف الدين مُنْكُلِى بُغَا - نائب السلطان - يدفعها من أوقاف الجامع ؛ فجعل من الطلبة - من جميع المذاهب - خمسة عشر طالبا ، لكل طالب فى الشهر عشرة دراهم ، وللمعيد عشرون ، ولكاتب الغيبة عشرون [٢] ، وللمدرس ثمانون [٣] .

وكانت الدراسة فى ذلك الوقت على مستويين متمايزين : ما يدرسه المماليك وينشّئون عليه ، وما يدرسه عامة الناس .

كان تعليم المماليك فى ساحة الإيوان بالقلعة ، حيث يحفظون القرآن الكريم ، ويتعلّمون الكتابة ، والخط ، وآداب الشريعة ، وشيئا من الفقه ، وفى سنّ البلوغ يتعلّمون ركوب الخيل ، واستعمال السلاح ، ويتدرّبون على القتال ، وإصابة الأهداف ، وأنواع الحروب ، ويخضعون لرقابة مشدّدة فى حياتهم وفى مأكلهم ، وملبسهم ، فإذا ما أتمّ المملوك تعليمه ، وتدريبه أعتقه أستاذه ، وينقل إلى الخدمة ، ويرقّى فى أطوارها رتبة ، بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء [٤] .

---

(١) العصر المماليكى ٣٤٣ ، وأدب الدول المتتابعة ١٣٣ .

(٢) كاتب الغيبة ، كان يحضر بكرة وعصرا ، ويكتب اسم من تغيّب ، وينقص من راتبه ما يخص أيام الغياب . انظر : أعيان العصر ٥ / ٦٢٨ .

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٣٢١ .

(٤) انظر : الفصل الثالث « تربية الفارس » من كتاب المماليك ٨٣ - ١٢٧ .

وكان تعليم عامّة الناس فى مراكز العلم المختلفة التى تقدّم للدارسين ثلاثة أنواع من العلوم :

الأول : العلوم النقلية ، وهى العلوم الشرعيّة ، وعلوم الكلام .

والثانى : العلوم اللسانيّة ، وهى علوم اللغة العربية .

والثالث : العلوم العقلية كالطب ، والفلك ، والرياضيات ، وغيرها ؛ فقد كانت المدارس تختلف بحسب موقعها ، والغاية من تأسيسها [١] .

ويؤكد ابن خلدون [٢] أنَّ العلم والتعليم إنَّما هما بالقاهرة [٣] ويعلل لرأيه بقوله [٤] : « واختُصّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ، ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أُمُّ العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع » .

وفى الحقيقة أصبحت القاهرة ، فى زمن المماليك « مجمع الوارد والصادر ، ومحطّ رحل الضعيف والقادر » [٥] وبخاصة منذ أنْ أصبحت مقرّ الخلافة العبّاسيّة ، وبالرّغم من أنَّ الخلافة العبّاسيّة فى القاهرة لم تكن أكثر من مجرّد رمز دينى ، وليس للخليفة من سلطة إلاَّ مباركة السلطان المملوكى ، وتنصيبه ، فقد تنبّه كثير من الباحثين إلى أهميّة وجود الخلافة الإسلاميّة ، وضرورتها لشرعيّة الحكم [٦] ؛ فمنها يستمدُّ الأمراء سلطتهم ، وتحت رايتها تستنفر الجنود للجهاد ، وبأمرها تجمع الأموال ، وتفرض الضرائب ؛ لتحصين البلاد والدفاع عنها .

وقد أصبحت القاهرة محلّ الأمراء والأجناد ، وأرباب الصنائع ، وأهل الأموال والبضائع والذخائر ، واستقرّ بها الفضلاء والنبلاء ، وهاجر إليها علماء المشرق والمغرب ، فوجدوها موطنًا كريما ، وحرمًا آمنًا مضيافا ، ورحّب بهم أبناء

---

(١) انظر : مطالعات فى الشعر المملوكى ٦٤ .

(٢) أبو زيد ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، ولى الدين الحضرمى (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) مؤرخ ، فيلسوف ، مؤسس علم الاجتماع ، صاحب المقدّمة الشهيرة ، وكتابه فى التاريخ « العبر وديوان المبتدأ والخبر » . انظر : الأعلام ٣ / ٣٣٠ ، ومعجم المؤلفين ٥ / ١٨٨ .

(٣) المقدمة ٢ / ٥٢٧ .

(٤) نفسه ٢ / ٧٠٩ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ٣٦ .

(٦) مستفاد الرحلة والاغتراب ٣ ، والعصر المماليكى ٣٥٤ .

عمومتهم ، ولاقوا فى إقامتهم - من عطف المماليك ، ورعايتهم - ما حبّب إليهم البقاء فيها ؛ فانبسطت نفوسهم ، واطمأنّت قلوبهم ، وطاب لهم المقام بها ، فأخذوا يكتبون ، ويصنّفون ، وينثرون ، وينظمون ، ويعلّمون [١] .

تعرّضت الثقافة العربية فى العصور الوسطى إلى نكبتين داهمتين :

أولاهما : فى المشرق ، بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول ، فى سنة ٦٥٦ هـ .

وثانيتهما : فى المغرب ، بعد أنْ أخذ الإسبان يُخْرِجُون العرب من ديارهم ، وأرضهم ، ويفتنونهم فى دينهم ، حتى تمَّ لهم الاستيلاء على غرناطة ، آخر معاقل المسلمين ، وحصونهم ، فى الأندلس ، فى سنة ٨٩٧هـ ، وأصبحت الأندلس أرضا بلا إسلام ، وأصاب كنوزها العلمية والأدبية ما أصاب كنوز بغداد ، من تلف وضياع ، وما تعرضت له من حرق وتدمير ، وتجمّع العلماء فى مصر والشام ، وجَدُّوا فى جمع التراث وتدوينه ، وبذلوا جهدا مشكورا ، فى هذه السبيل ، وتركوا للإسلام وللعروبة من المؤلفات والموسوعات ، والبحوث ما يبوِّئهم أسمى مكان ، ويشهد لهم بالفضل والفخار ، وليس من المبالغة فى شىء القول بأنَّ المؤلفات التى كتبت فى العصر المملوكى بلغت عشرات الألوف ، فى مختلف الفنون ، والعلوم ، مازال العرب إلى اليوم عاجزين - أفرادا ، وجماعات ، وحكومات - عن تحقيقها ، ونشرها ، وتيسير سُبل الانتفاع بها ، والدليل على ذلك أنّ أغلب العلماء فى تلك الفترة كانوا من المكثرين فى التأليف ، وأنّ أعدادا كبيرة منهم ألَّف العالم الواحد منهم المئات من الكتب ، وبعض تلك الكتب تتكون من عشرات المجلدات التى تمتلئ بها خزائن الكتب فى العالم ، نذكر منهم على سبيل المثال ابن تيمية [٢] ،

---

(١) الحياة الأدبيّة فى مصر « العصر المملوكى والعثمانى » ١٤ .

(٢) أبو العبّاس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، تقى الدين ابن تيمية الحرّانى (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) حافظ ، فقيه ، مفسر ، مجتهد . انظر : أعيان العصر ١ / ٢٣٨ ، والوافى بالوفيات ٧ / ٢٢ ، والأعلام ١ / ١٤٤ ، ومعجم المؤلفين ١ / ٢٦١ ، و١٣ / ٣٦١ .

ومحمد بن أحمد ، الذهبى ، والتقى السبكى [١] ، والصفدى ، وغيرهم [٢] .

وكان لهذه النهضة العلميّة والأدبية أثر واضح فى تقدّم الحضارة العربيّة ، فى ذلك الوقت ، يتجلّى ذلك فى :

* تعبيد الطرق ، وتمهيدها ، وتوسيعها ، وتذليل الصعاب ، وبخاصة فى طريق الحج ، والتجارة ، وتأمين المسالك [٣] .

* العناية بمقدسات المسلمين ، يقول الدكتور زكى محمد حسن : « لا ريب فى أنَّ عصر دولتى المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) هو العصر الذهبى فى تاريخ العمارة الإسلامية ، فى مصر ؛ فقد كان الإقبال عظيما على تشييد العمائر ، من جوامع ، ومدارس ، وأضرحة ، وحمامات ، ووكالات ، وأسبلة ، كما ظهر التنوع ، والإتقان ، والأناقة فى شتّى العناصر المعمارية من : واجهات ، ومنارات ، وقباب ، وزخارف جصيّة ، ورخاميّة » [٤] .

ولم تقتصر العمائر الدينية والمدنية فى عصر المماليك على مصر والشام وحدهما ، بل امتدّت عنايتهما إلى الأماكن المقدسّة فى كل مكان ، وبخاصة ثلاثة المساجد التى تشدّ إليها الرّحال : بيت الله الحرام فى مكة المكرّمة ، ومسجد رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة ، ومسجد القدس الشريف .

أمّا بيت الله الحرام فلا نكاد نجد سلطانا أو أميرا إلاّ وله إسهام كبير فى عمارة المسجد ، وكسوة الكعبة ، وبناء دور الضيافة ، والقيام بشئون الحجاج [٥] .

---

(١) أبو الحسن ، على بن عبد الكافى بن على بن تمّام ، الأنصارى ، الخزرجى (٦٨٣ - ٧٥٦هـ) قاضى قضاة الشافعية ، حافظ ، فقيه ، مفسر ، مقرئ ، أصولى ، أديب ، شاعر ، جامع للكثير من العلوم والفنون ، شيخ الإسلام فى عصره . انظر : ذيول العبر ٤ / ١٦٨ ، وذيل تذكرة الحفاظ ٣٩ ، والوافى بالوفيات ٢١ / ٢٥٣ ، وأعيان العصر ٣ / ٤١٧ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٨٨ ، ودرة الأسلاك ٣٩١ ، والوفيات ، للسلامى ١ / ٣٣١ ، والبداية والنهاية ١٤ /٢٥٢ ، وعصر سلاطين المماليك ٣ / ٢٧٧ ، والأعلام ٤ / ٣٠٢ ، ومعجم
المؤلفين ٧ / ١٢٧ .

(٢) بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ، د / سعيد عبد الفتاح عاشور ٥٠٤ .

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب ٧ ، والنجوم الزاهرة ٩ / ٦٠ .

(٤) انظر : العصر المماليكى ٣٧٣ ، نقلا عن فنون الإسلام ٧١ .

(٥) راجع « مكة » فى فهارس أعيان العصر ٢٩٥ .

وأمّا مسجد رسول الله ﷺ فمن المعروف أنّ المسجد كان قد احترق سقفه ، وأصابه تلف كبير فى رمضان سنة ٦٥٤ هـ ، وأصبح العمل فيه من واجبات السلطان المملوكى فى مصر ، فأعيد بناؤه ، وأصلحت قبابه ، وصُنِع له منبر فاخر ، وتوالت عناية السلاطين والأمراء به فى جميع الأوقات [١] .

وأمّا بيت المقدس فقد نال من اهتمام المماليك وعنايتهم ما لا مزيد عليه [٢] .

* تقدم فنون النحت والحفر والصناعات التقليدية ، والصناعات المعدنيّة والخزفية ، وغيرها [٣] .

* تقدّم الصناعات الحربية من أسلحة ، ودروع ، وسفن ، فمنذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، بدأت حركة الجهاد الإسلامى ضد القوات الصليبية الغازية ، فى مصر والشام ، ومن ذلك الوقت والاقتصاد العربى اقتصاد حرب ، يذكر ابن مَمَّاتى [٤] اثنى عشر نوعا من أنواع الحديد ، وأربعة وأربعين نوعا من أنواع الأخشاب التى تُصَنَّع منها الأسلحة والسفن ، وكانت هذه المواد توضع فى « صوامع البضاعة » فى القاهرة ، وكانت تشتمل على « ما لايمكن حصره من الأخشاب ، والحديد ، وآلات الأساطيل ، من القَتَب ، والكتان ، والمنجنيقات » [٥] .

واستطاعت دور الصناعة فى مصر أن تبنى فى عام واحد مائة مركب حربى[٦] ، ويبدو أنّ المماليك كانوا هم أول من أنشَئُوا نظاما للدفاع المدنى ، فبعد حريق القاهرة فى سنة ٧١٧ هـ ، نودى بأنْ يوضع إلى جانب كل حانوت زير ، أو دَنّ كبير يملأ بالماء ؛ لإطفاء الحرائق [٧] ، وهم الذين طبّقوا فكرة الشعب المسلّح ، فبعد

---

(١) راجع : المدينة المنورة ٧٩ .

(٢) راجع : بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ٥٠٦ .

(٣) راجع : مقال سير توماس أرنولد « الفن الإسلامى وأثره على التصوير فى أوربا » فى كتاب تراث الإسلام ١٦٧ .

(٤) أبو المكارم ، أسعد بن مهذّب بن مينا (ت ٦٠٦ هـ) وزير ، أديب ، كان نصرانيا ، وأسلم ، له قوانين الدواوين . انظر : الوافى بالوفيات ٩ / ١٩ ، والأعلام ١ / ٣٠٢ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ٢٤٩ .

(٥) قوانين الدواوين ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٦) تاريخ البحرية الإسلامية ٣٢٠ .

(٧) النجوم الزاهرة ٩ / ٦٥ .

استرداد صفد من الصليبيين ، أخليت من أهلها ، وأعيد تقسيم مزارعها ، ومساكنها على سكّانها الجدد من الجنود والمقاتلين القدماء ، وأرباب السيوف ، وحمل إليها من المؤن والسلاح ما يجعلها قادرة على مقاومة المعتدين [١] .

وفى كتب التاريخ ، والأدب ، والرحلات صور من مظاهر الحضارة ، تثير الإعجاب ، فيذكر التُّجَيْبى أنَّه كان فى جامع ابن طولون فى القاهرة ٢٤ طاقة ، بعدد ساعات النهار ، يعرف بها الوقت [٢] ، وفى ترجمة محمد بن بادى بن أبى بكر ، شمس الدين الطِّيبِى كان يصنع فتائل العنبر ، ويهدى إلى أصدقائه منها كثيرا ، وكان يستعمل نظّارة طبيّة ، قال الصفدى [٣] : « أنشدنى من لفظه ، لنفسه فى العيون الزجاج التى يعانيها ، من ضعف بصره ، لرؤية الخط الدقيق ، ويضعها على أنفه :

لَهْفِى عَلَى دَوْلَةِ التَّصَابِى وَحُقَّ لِى أَنْ يَزِيدَ لَهْفِى
كَانَتْ عُيُونِى مِنْ فَوْقِ خَدِّى فَالْيَوْمَ أَمْسَتْ مِنْ فَوْقِ أَنْفِى

وكان إبراهيم بن أبى الوحش أول من صنع شراب الورد [٤] .

وهم أول من صنع « التوربين المائى » المستخدم فى إدارة الآلات ؛ فقد صنع الأمير جركس الخليلى وهو أمير آخوركبير [٥] طاحونا فى مركب ، عند بسطة المقياس ، يديرها الماء ، مثل الرّحا وتستخدم فى طحن القمح ، وجَعْلِه دقيقا ، فيأتى الناس إليها أفواجا أفواجا لرؤيتها ، ووصفها الشعراء ، من ذلك وصف الشهاب العطار [٦] لها ، قال [٧] :

---

(١) التحفة الملوكية ٥٥ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ٣٦٩ .

(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب ٧ .

(٣) أعيان العصر ٤ / ٣٤٥ .

(٤) نفسه ١ / ١٣٤ .

(٥) أمير آخور : من يشرف على إسطبل السلطان ، ويقوم بأمر ما فيه من الخيل والبغال وغيرها . انظر : صبح الأعشى ٥ / ٤٦٠ .

(٦) أبو العباس ، أحمد بن محمد بن على ، شهاب الدين ، العطار ، الدُّنيْسَرِىّ الشافعى (٧٤٦ - ٧٩٤ هـ) شاعر ، أديب ، مدح الأمراء ، ونظم الوقائع ، من كتبه « نزهة الناظر فى المثل السائر » ، وجمع شعره فى ديوان سمّاه « جامع المحاسن » . انظر : الأعلام ١ / ٢٢٥ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ١٣٠ .

(٧) بدائع الزهور ١ / ٢ / ٣٠٧ .